من وقائع أحد.. على طريق البناء
فلن يضرَّ الله شيئاً

«١»

في سورة آل عمران واحد من المعالم القرآنية، يبدو في عطائه المتجدِّد ذا نسب إلى ما كنا بسبيله في كلمات سبقت مما يتعلَّق بالأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه حركة المسلم في الحياة؛ وهو أن المبادئ التي تمليها عقيدة التوحيد الخالص: هي التي يجب أن تحكم منطلقاته وتصوراته وما يتبع ذلك من ممارسات لا بد منها لإدارة حركة الحياة؛ كل أولئك كيما يقود عملية البناء ـ وهو ينتمي إلى رسالة تبني للدنيا وللآخرة ـ أجل كيما يقود هذه العملية في كل حلْقة من حلقات مسيرته؛ بدءاً بالفرد ومروراً بالمجتمع في الطريق إلى الأمة، وكيما تكون علاقته بالكون والحياة، علاقة طبيعية منتجة كما أراد اللَّه.

فهو لا يعاني ولو أثارةً من الانفصام بين العقيدة والسلوك، وهو يخوض معارك بناء الواقع الأمثل، ويحرِّك دفة الحياة، ولا يتواكل ـ وهو يدير عجلة العلم والتغيير إلى ما هو الأفضل ـ بل يعمل متوكلاً على اللَّه توكلاً مقترناً بالأخذ النيِّر الواعي بالأسباب المطلوبة لإعمار الأرض وبناء الحضارة التي يقيمها مبتغياً في كل ما آتاه اللَّه ـ من مقومات الوجود المثمر ـ الدار الآخرة، غير ناسٍ نصيبه من الدنيا؛ ذلك بأنه ـ وقد آمن إيماناً تتزلزل الجبال الرواسي ولا يتزلزل ـ لا يترقب بعثة رسول جديد، ولكن يعيش للرسالة التي بلغها محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه، وتناقلتها الأجيال المؤمنة بالتواتر والمعاناة العملية جيلاً بعد جيل، ورجاؤه عند اللَّه تعالى أن يموت على ذلك عملاً بقول اللَّه جلَّ ثناؤه: وما كان من بيان النبي ﷺ قولاً وعملاً وتربيةً لأصحابه على ذلك.

وإذن: فالقضية ـ كما توحي معالم الكتاب العزيز وبيانها من السنة المطهَّرة ـ قضية نهوض بالعبء بعزيمة وإخلاص، وأخذٍ بأسباب البناء المتكامل الشامل الذي دعت إليه الرسالة الخاتمة أخذاً لا تعوزه المنهجية، ولا يفتقد سُلَّم الأولويات، وتنمية لكل الطاقات الفكرية والاقتصادية وغيرها، من أجل أن يتعالى البناء ثقافةً وحضارةً وتطلعاً إلى حسن العاقبة يوم الدين.

والأمر في هذا كله منوط بالإنسان المكرَّم عند اللَّه، وحُسنِ الانتفاع بما سخر اللَّه له في هذا الكون، بصرف النظر عن وجود صاحب الرسالة ـ بشخصه الكريم صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ وعدم وجوده، لأنه إذا انتقل رسول اللَّهﷺ إلى الرفيق الأعلى: فما عاش لأجله، وبلغه، وجاهد في سبيله: قائم موجود في الكتاب والسنة، ثم ما فهمه أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان! واللَّه بكل شيء عليم.

وعندما يسلَم لكل من الفرد والجماعة هذا التصور لتلك الحقيقة بكل أبعادها وما لها من سلطان في عالم الحركة والإنجاز: يكون الإنسان ـ بحقٍ ـ عنصر فعالية وتأثير، يبني وينمي، نافعاً ومنتفعاً، ويدفع بعجلة التاريخ على المنهج الذي يجب أن يكون.

وليس من مكرور القول أن نذكِّر بعد هذا بقول اللَّه تبارك وتعالى في السورة التي ألمحنا إليها في صدر هذا الحديث سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[آل عمران: ١٤٤-١٤٨] .

هذه الآيات وأخرى غيرها: مما نزل بشأن وقائع حصلت في غزوة أحد، ورائحة المعركة التي تذكِّر بالجهاد والمجاهدين: تنعش القلب، وتُذكي روح الأمل، وتضاعف الثقة بأحقية ما يشرق به المنهج القرآني من مثاليَّة في عرض الوقائع وصلتها بالنفس الإنسانية، والكشف عن الطاقات الإيمانية وأهليتها لسدِّ الثغرة وتقويم ما يجب تقويمه من الاجتهاد ورحى المعركة تدور.

ولسوف نرى ـ إن شاء اللَّه ـ أن هذه الكلمات الطيبات المباركات: عنوان قضية كبرى في الإسلام: هي أن الخلية الإسلامية لا يصح أن تتوقف عن العمل.. عن ممارسة بناء الحياة الأفضل في ميادينها كافَّةً على تنوُّع وجوه العطاء والتأثُّر والتأثير، مهما غلت التكاليف وتعاظم الثمن؛ لأن الأمر أمر رسالة هي لخير الإنسانية وسعادة الإنسان في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وقِيَم منبثقة عن هذه الرسالة تتميَّز أول ما تتميَّز بالإحاطة والشمول، لا أمرُ رغبات شخصية تثور هنا وتخمد هناك، بعيداً عما يُرجِّي العبدُ من ثواب الدنيا وحسنِ ثواب الآخرة، وأن يتدرّج على سُلَّم الصلة باللَّه إيماناً وعملاً حتى يبلغ أن يكون ممن يقول اللَّه فيهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

من وقائع أحد.. على طريق البناء

«٢»

ما أشاعته ألسنة السوء ـ في توجيه إعلامي ماكر ـ عن مقتل رسول اللَّه ﷺ في «أُحد» بعد أن صاح ابن قمئة أن محمداً قد قُتل وكان له ما له من الآثار السيئة، لم يكن لهذه الآثار من سلطان يتبدَّى في الضعف والقعود عن متابعة المعركة بعد الذي حصل من خطأ أكثر الرماة وعدم امتثالهم لقائدهم بالبقاء رضي اللَّه عنهم أجمعين.. لم يكن لهذه الآثار من سلطان على جميع المقاتلين، وإنما كان على البعض؛ وفي الساعة الحرجة والشدة الشادَّة برزت ظاهرة قوة الإيمان والوعي ـ كغافٍ غفوة قصيرة جاءه ما أيقظه ـ وأن مقتل رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ وهم يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم ـ ولو وقع، فليس بمنج من المسؤولية في الجهاد الصادق الصابر، وقتال أعداء اللَّه المشركين؛ فهؤلاء الضالُّون المضلُّون لا يبتغون بهذا الحرص الشديد الآثم على قتله ـ فداه أبي وأمي ـ شخصه الكريم فحسب، ولكن يبتغون القضاء على دعوته ـ لو أمكنهم ذلك ـ وعلى أهل دعوته. ومن أجل ذلك استماتوا في التركيز عليه صلى اللَّه وسلم وبارك عليه، وهو صابر لا يتزحزح عن موقعه رغم كل ما أصابه، وبدا هو ومن باعوا أنفسهم لله دون حياته، وكأنه رجل الدنيا كلها في الثبات والتضحية والاستهانة بالصعاب ـ مهما اشتدت ـ في سبيل اللَّه.

روى الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار ـ وهو يتشحَّط في دمه ـ فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: «إن كان محمد قد قتل؛ فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم».

ويبدو أن هذه الواقعة التي ترجمت الصحوة الإيمانية السريعة قد تكررت؛ فقد ثبت أيضاً أن بعض المقاتلين مرَّ على نفر من إخوانه ـ وقد أرهقهم النبأ المزعج ـ فقال لهم: إن كان حقاً ما يقال من أن محمداً ﷺ قد قتل، فقوموا للقتال، وموتوا على ما مات عليه!

الحق أنه الإيمان العميق بما عند اللَّه للمجاهدين في سبيله، والوعي الدقيق العميق لرسالة هذه الأمة التي شاء اللَّه أن تكون خير أمة أخرجت للناس، والحرصُ على العمل بهداية المعالم التي رسمها الكتاب الكريم، وبيَّنها بالقول والفعل والأسوة خير بيان رسول اللَّه المجتبى صلوات اللَّه وسلامه عليه: فالقتال في سبيل اللَّه: لا في سبيل مغنم أو عرَض من أعراض الدنيا الفانية! واللَّه الذي شرع الجهاد في سبيله وحضَّ عليه وبشَّر القائمين به خير البشريات: حيٌّ باقٍ لا يموت لا يضيع عنده عمل عامل ولا يخفى عليه جهاد مجاهد ولا صبر صابر على تكاليف هذا الجهاد؛ والقيم التي طرحتها دعوة الإسلام الموحى بها إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام: ليست محدودة بزمان ولا مكان ولا قوم، بل ولا عرق أو جنس، ولكنها ـ كما دلت النصوص القطعية ثبوتاً ودلالة ـ للناس كافةً؛ فهي متسعة بشمولها للزمان والمكان، وكل بني الإنسان حتى يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

ولكن هذا الذي تجري الإيماءة إليه من اليقظة السريعة بعد الغفلة العابرة من جراء الشائعة المرهقة: لم يمنع في الواقع ـ وهذا من الحكمة البالغة في المنهج الرباني ـ أن تنصبَّ الآيات الكريمات على نقطة الضعف تقتلعها من جذورها؛ لأن هذه الأمة منوط بها أن تبني حضارة الإنسان التي تحمل إلى البشر سعادة الدنيا والآخرة، وأول خطوة على هذه الطريق الطويلة المملوءة بالمكاره التي حفّت بها الجنة: بناء الإنسان بناءً إيمانياً يحمل على العمل بما تقتضيه عقيدة التوحيد في كل مجال من مجالات الحياة ومن عيونها: بذل المال والنفس تحت رايتها راية الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه».

وهذا يقتضي تنقية الطريق من الشوائب، وتقديم ما يطرأ من عوج على أي جانب من جوانب التصور، أو العمل.

وعلى هذا: فكيف يحق لهؤلاء البررة الذين خاضوا معركة أحد ذوداً عن تلكم العقيدة ورغبة في الشهادة في سبيل اللَّه: أن يلقوا السيوف عن عواتقهم استجابة لشائعة مقتل رسول اللَّهﷺ؛ فهو ﷺ خاتم المرسلين مبلِّغ رسالة هذا الدين، والرسالة باقية إلى يوم يبعثون.

كيف يحق لهم أن يقعدوا عن متابعة القتال فينقلبوا على أعقابهم.. وسيوف الكفر مشرعة تريد القضاء على الإسلام وأهله مستهدفة البدء بقتل المصطفى عليه الصلاة والسلام! وكل أذىً يصيب دعوة الإسلام فإنما هو أذى للإنسانية جمعاء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤].

أما بعد: فصحيح أن الآيات تنزلت في شأن الجهاد يوم أحد، ولكن دلالة المعلم القرآني تتسع وتتسع، وتنذر وتحذِّر من أن القعود المتولِّد عن التماس المعاذير المتعجلة، عن أي خطوة من خطوات الإحكام للبناء الأمثل في ظل شريعة الإسلام بأصولها وفروعها ومقاصدها العظيمة؛ مرفوض بحكم العقيدة والدين ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ذلك بأن النهاية سنة من سنن اللَّه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر: ٣٠] وإن كان اللَّه ـ كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ـ قد حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

ألا إن هذا المعلم القرآني بما ـ يدعو إلى التحرك المنهجي المنضبط في ضوء الإيمان بما عند اللَّه، وفي ظل قيم الإسلام ومبادئه التي تستعلي على محدودية الزمان والمكان والأشخاص ـ: يحمل قضية كبرى مصحوبة ببرهانها المتمثل في أن على كل مكلف في دنيا المسلمين ـ ذكراً كان أو أنثى ـ تبعة الإسهام في بناء القوة الذاتية للأمة من حيث الطاقات البشرية والاقتصادية والفكرية؛ لأن الرسالة هي

الرسالة، ولأن الأمانة هي الأمانة؛ وحين تتفتح البصائر: يتبدى للناظر المتدبر كأن هذا المعلم القرآني تتنزل كلماته غضة طرية اليوم لتشدّ على يد الأمة في معتركها ضدَّ التخلف وسلطان المعتدين.

وطوبى لمن همُّه أن يكون أبداً على سواء الصراط، ويدور مع الحق حيث دار.

من وقائع أحد..
على طريق البناء فلن يضرَّ الله شيئاً
«٣»

لقد عودنا القرآن الكريم في معالمه الخيِّرة البنَّاءة ـ ويا نعم ما تبني ـ وضوح الغرض المرتبط بسبب ـ أو أسباب ـ نزول الآية أو الآيات؛ فترى نور الهداية يصحب العبارة في الآية كما يصحب الآية أو الآيات جميعاً، وكثيراً ما يكشف عن المناسبة بين آية وأخرى، أو مقطع من مقاطع الآيات ومقطع آخر.

ولقد كان من حكمة اللَّه تبارك وتعالى حيث صنع أمة الإسلام بكتابه وهدي نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس: أن جعل من إعجاز هذا الكتاب استعلاءه على حدود الزمان والمكان، وبذلك ترى سلطان الآية أو الآيات الكريمات في هدايتها وما تشرق به من إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بعقله وبقلبه، لا يحدُّ ما ترمي إليه زمان ولا مكان، إلا أن نقع على نص يعطي هذا التحديد كما اقتضته الحكمة الإلهية.

ولعل ما قرّره جمهور العلماء من أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» بمعنى أن خصوص السبب لا يحول دون أن يعمل العموم في النص عمله شمولاً لكل ما ينطوي تحته من أفراد: بعضٌ من تلك الحقيقة التي نلمح إليها في هذه الكلمات!

وفي حديث موصول بكلام حول بعض وقائع «أُحُد» سبق من قريب، نحاول من خلاله أن نكشف عما يؤديه خط الهداية في المعلم الذي حوله ندندن من وصْل حاضرنا بذلك الماضي المستنير الذي من سماته حسن الإفادة حتى من الخطأ إذا وقع، وكيف يكون التذكير من خلال الوقائع والحركة، بما هو الأصوب من ناحيتي

العقيدة والسلوك المنسجم معها، طاعةً لله ولرسوله ﷺ بإخلاص نية وصدق عزيمة... في حديث موصول بذلك: نطالع من قصة المعلم القرآني في تلكم الآيات من سورة آل عمران، والمبدوءة بقول اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران: ١٤٤] الآيات أنه لما انهزم من انهزم من المسلمين في الجولة الثانية يوم «أحد» بعد أن كانت لهم الغلبة في الجولة الأولى، وقتل من قتل منهم، وثبت رسول اللَّه ﷺ ونفر معه ذلك الثبات المنقطع النظير، حتى شجَّ رأسه عليه الصلاة والأم، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتا المغفر وجنتيه: نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل.. ورجع ابن قميئة إلى المشركين صارخاً بأعلى صوته صراخ الجزع الفرح: قتلت محمداً!! وإنما كان قد ضرب رسول اللَّه ﷺ فشجَّه ـ فداه أبي وأمي ـ في رأسه، وفي لحظة من لحظات الضعف البشري: وقعت هذه الشائعة في قلوب عدد من الناس موقع التصديق، واعتقدوا أن نبيهم ﷺ وقائدهم قد قُتل، وجوَّزوا ذلك عليه، كما قد قصَّ اللَّه عن كثير من الأنبياء.

وكان لذلك ما له من الأثر السيئ في حركة المعركة وما كان من الشدة الشادَّة، لما أنه قد حملهم على ترك القتال، والقعود عن متابعة المواجهة مع أعداء اللَّه، وفي ذلك نزل قول اللَّه تباركت أسماؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤].

إنها سنة من سنن اللَّه الماضية التي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، ينبه القرآن المجيد المسلمين عليها؛ فما محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ وهو خاتم النبيين والرحمة المهداة ـ إلا رسول له أسوة بمن خلا قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام في الرسالة، وفي جواز القتل عليه، ولكل أجل كتاب. والحقيقة التي يجب أن يكون المسلمون على ذُكْرٍ منها: أنهم يقاتلون في سبيل اللَّه، وتحت الراية التي دعا إلى حملها ـ عملاً بما أوحي إليه ـ رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام.

وإذن: فالأمر ليس مرتبطاً بوجوده ـ ﷺ ـ بنفسه بين ظهرانيهم، بل الأمر مرتبط تمام الارتباط بدعوته ومنهجه والتفاني على ساحة العمل لإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، وأن تكون شريعة اللَّه هي المحكَّمة!

وعلى هذا: فالتقاعس عن عملية البناء الذي يراد له أن يتنامى على ساحات الفرد والمجتمع المسلم والدولة المسلمة ـ وهي العملية التي أفاض في بيان معالمها وحدَّد أبعادها هو صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ مرفوض رفضاً قاطعاً من وجهة النظر الإسلامية؛ وإذا كان الأمر كذلك: فالمطلوب أن تكون مشاعر المتابعة والتأسي، وإحكام الرباط بين سيرته التي كان عليها وبين سلوك المسلمين: على حال من النماء المستمر ساعة فساعة، ويوماً بعد يوم، وما من عاقل متبصِّر بنصوص الكتاب والسنة يزعم أن رسالة محمد ﷺ محدودة بعمره على هذه الأرض.

ومن هنا جاء النص الذي هزَّ قلوب المؤمنين، وصحا عليه من انتابهم شيء من الغفوة ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

إنه التوجيه المنهجي الحاسم، وقيادة الأمة بعقيدتها التي تخالط العقول والقلوب، ولا بد أن تنعكس على الجوارح والتصرفات، كيما تكون هذه الأمة ـ بحق ـ خير أمة أخرجت للناس، تبني الحياة بدعوة الحياة، ولا تدع أن تخوض معارك المبادئ والقيم في شتى الميادين لخير الإنسانية كلها ولله الأمر من قبل ومن بعد.

من وقائع أحد.. على طريق البناء وسنجزي الشاكرين

«٤»

هذا الأسلوب المعجز في التربية والإعداد، لتحقيق بناء الإنسان المسلم من خلال المعرفة وتفسير الوقائع، وترجمة تلك المعرفة إلى معاناة وحركة.. هذا الأسلوب الفريد لا يكاد يبارح واحداً من المعالم القرآنية في كتاب اللَّه على هذا الصعيد!

ولا بدع في ذلك؛ فهو مصدر الهداية الأول، والنور المبين، والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهل ننسى أن اللَّه تعالى جعله باعث الطمأنينة، والاستعلاء على القلق والاضطراب النفسي الذي كثيراً ما يحصل بسبب المعوقات التي تحتاج إلى الرضا والصبر على قضاء اللَّه تحت راية نصرة الحق؛ فهو الهدى والرحمة والشفاء لما في الصدور.

أقول هذا بعد الذي سبق من القول في رحلة مباركة ـ على قصرها ـ مع واحد من تلك المعالم في سورة آل عمران، حيث الآيات التي تنزلت في شأن ما حصل يوم «أُحد» والتي كان منها قول اللَّه تباركت أسماؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

فما من ريب في أن هذه الآية وما تلاها: قد ردَّت الأمور إلى نصابها ـ كما أسلفنا من قبل ـ وعملت عملها من خلال العتاب ـ ترغيباً وترهيباً ـ على ما حصل من وقوف البعض عن متابعة المعركة بحجة أن رسول اللَّه ﷺ قد قتل: في استئصالِ

هذه الهفوة التي كانت انعكاساً للشائعة الخبيثة؛ من جذورها، وردٌّ المسلمين إلى الأصل الذي يجب أن يظلَّ منطلقهم، مهما تلونت الظروف وتنوعت المفاجآت. ألا وهو الثبات على الحق الذي جاء به محمد ﷺ، بصرف النظر عن حياته بين ظهراني المسلمين أو انتقاله ـ عليه صلوات اللَّه وسلامه ـ إلى الرفيق الأعلى؛ وذلك بإسلام الوجه إلى اللَّه بالكلية، واستذكار أن قتال الأعداء تحت راية الحق الذي نزل به الروح الأمين على رسول اللَّه، إنما هو جهاد في سبيل اللَّه وحده، وكل عدول عن ذلك: تحوُّل إلى ساحة أخرى ليست من الجهاد المشروع في شيء، وأن الأمر أمر عقيدة ربانية تبنى عليها أحكام الشريعة وقيم الأخلاق والسلوك طلباً لمرضاة اللَّه عز وجل، وليس ارتباطاً بحياة صاحب الرسالة أو موته. وسرعان ما كانت الاستجابة لهذا التوجيه، وكانت التضحيات التي تعز على النظير!!

غير أن الذي يستوقف الناقد البصير في ظل هذا العنوان العام: أنك من خلال العتاب الصارم لهؤلاء المجاهدين الصادقين وما لهم من المكانة والقدر عند اللَّه: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ تبصر أسلوب الإعداد والتكوين الفريد عند ربط التحرك تحت راية الجهاد في سبيل اللَّه بالعقيدة والمنطلق الإيماني في طاعة اللَّه تعالى.

وفي الوقت نفسه ترى الإيجابية في عدم الاقتصار على الزجر والتهديد والوعيد.. ولكن معها الكشفُ عن إعطاء كل ذي حق حقه ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾اتساقاً مع واحدة من سنن اللَّه الحكيمة في وضع الأمور مواضعها بحكمة بالغة.

وذلكم هو البناء المستنير المحكم، بناء الإنسان المسلم على الأسلوب الذي يجعل منه كفاء التغيير على المستوى الحضاري الذي يأخذ الطابع الإنساني، حيث تبدو الأقوال والأفعال ـ ومنها جهاد النفس وجهاد العدو ـ روافد خير على طريق الإنسانية. لما أنها لا تنحرف عن مسار العقيدة، ولا تترنح تحت سلطان الأهواء ورغبات المتسلطين. وكل أولئك يتسق تمام الاتساق ـ في الواقع ـ مع حقيقة إنسانية رسالة الإسلام التي تستعلي على كل الفوارق وتكون هي واسطة العقد بين الناس.

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن مات محمد ﷺ أو قتل، رجعتم القهقهرى؟! وفي هذا تحديد للمفهوم الذي يجب أن يكون ملء القلب والعقل.. ومن يرجع القهقرى، فقد ظلم نفسه، وجنى على وجوده الذاتي ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ فالمطلوب العمل بالرسالة والتأسي بصاحبها في حياته وبعد موته.

وبعد هذا التنبيه الجازم الحكيم، تطل علينا يد الرحمة التي لا تفتأ ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ تنمي بواعث الخير، وتجزي على صالح العمل من أوسع أبواب المثوبة والفضل؛ وفي ذلك ما فيه من استكمال البناء في شخصية المسلم المنوط به أن يكون الصورة الحية الصادقة لرسالة الإسلام، ودفعه إلى أن يكون عنصر بناء وطاقة نماء، حتى في أشد الحالات كرباً وهولاً؛ فالذين يقومون بطاعة اللّه تعالى، ويقاتلون في سبيله، ويذودون عن حمى دينه، ويتبعون رسوله النبي الأمي في حياته، ويظلون على ذلك بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى: هم الشاكرون لنعمة اللّه عليهم بالإسلام، وسوف تكون لهم ـ بهذا الشكر ـ عقبى الدار والأجر العظيم ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وجيء بالسين في﴿وَسَنَجْزِي﴾التي تدل على القرب توكيداً لصدق الوقوع.

وبعد: فما أحرى المؤتمنين على تربية الأجيال في هذه الأمة المحمدية أن يستضيئوا بهذا القبس المنتمي إلى المنهج الرباني في بناء الإنسان القادر على البناء المنشود في الأسرة والمجتمع والأمة، في حالات العسر واليسر، والشدة والرخاء. وسبحان العليم الحكيم.